

الشيخ أحمد زروق

الدرس
11

أهداف الدرس

1. أن أتعرف سيرة الشيخ أحمد زروق رحمه الله.
2. أن أثبت من منهج الشيخ زروق في التصوف.
3. أن أقتدي به في علو همته في طلب العلم.

تمهيد

عُرف المغرب بعلماء وعبّاد انتفع بهم أهل المشرق والمغرب بما كان لهم من أثر في التربية والتعليم والتأليف في مختلف العلوم والفنون، مع قوة في الإشارة، وبراعة في العبارة، وقدرة على الإبانة، وعناية بعلوم الوسيلة والغاية، أخذوا من كل فن بحظ وافر، ومن هؤلاء الأكابر الشيخ الصوفي أحمد زروق صاحب الرحلات النافعة والمؤلفات النفيسة الماتعة.

فمن هو الشيخ أحمد زروق؟ وما جهوده ومنهجه في التصوف؟.

نص الانطلاق

- قال الشيخ زروق - رحمه الله -: «طفت مشارق الأرض ومغاربها في طلب الحق واستعملت جميع الأسباب المذكورة في معالجة النفس بقدر الإمكان في مرضاة الحق، فما طلبت قرب الحق بشيء إلا كان مبعدي، ولا عملت في معالجتها بشيء إلا كان لها معينا، ولا توجهت لإرضاء الخلق إلا كان غير موف بالمقصود، ففزعت إلى اللجأ إليه - عَزَّ وَجَلَّ - في الجميع فخرجت بفضل ذلك على رؤية الأسباب، ففزعت إلى الاستسلام، فخرج لي منه رؤية وجودي وهو رأس العلل فطرحت نفسي بين يدي الحق - سبحانه - طرعا لا يصحبه حول ولا قوة، فصح عندي أن السلامة من كل شيء بالتبري من كل شيء، والغنيمة من كل شيء بالرجوع إلى الله في كل شيء، اعتبارا بالحكمة والقدرة وقياما مع الطباع بشواهد الانطباع، ولما يرد منه تعالى أمرا ونهيا وخيرا وقهرا وعبودية لا تصحبها رؤية، ورؤية لا يصحبها اعتماد واتساعا لا يصحبه ضيق، وضيقا لا يصحبه اتساع» [نيل الابتهاج، ص 133].

- قال الشيخ زروق: «الناس ثلاثة: عالم متمكن متبصر في أخذ المسائل، يطلب الدليل وإن لم يكن مجتهداً، ومتوسط في الأمور بين العامة والعلماء، فلا يصح اتباعه إلا لمن تبصر في شأنه، فأوجب له ما علم من الشريعة أن هذا ممن يقتدى به، ثم لا يأخذ منه ما يأباه ما علمه من قواعد الشريعة؛ إذ لا يجوز لأحد أن يتعدى علمه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36]. وعامي، وحقه أن يقف مع ما لا يشك في حقيقته من تقوى الله تعالى وذكره، والعمل على الجادة التي لا شك فيها، وإلا فهو مستهزئ بدينه ومتلاعب به...» [عدة المريد الصادق، ص 46].

الفهم

الشرح:

- الشريعة: تكليف الظواهر، فالشريعة أن تعبد، والطريقة أن تقصده، والحقيقة أن تشهد.

- استخلص منهج الشيخ زروق في التصوف، وأبين من يصح الاقتداء به في الطريقة.

التحليل

أولاً: ترجمة الشيخ أحمد زروق (846 - 899 هـ)

هو الإمام العالم الفقيه المحدث الصوفي الولي الصالح الزاهد العارف بالله «أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، أبو العباس «زروق»، من أهل فاس، تفقه في بلده، وقرأ بمصر والمدينة، وغلب عليه التصوف فتجرد وساح» [الأعلام، للزركلي 91/1 بتصرف]. «الورياكلي أصلاً وولادة، الفاسي نشأة وداراً» [أصول الطريق، للشيخ زروق، ص 9]. و«زروق» لقب أتاه من جهة جده لأمه الذي كان أزرق العينين، يتحدث الشيخ زروق - في كناشه الذي عرّف فيه بنفسه وأحواله وشيوخه - عن مولده الذي أخبرته به جدته الفقيهة «أم البنين» قائلاً «كان مولدي عند طلوع الشمس من يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر محرم عام 846 هـ من الهجرة» [الكناش، صور من الذكريات الأولى، لزروق، ص 11].

نشأ يتيماً في كفالة جدته، وضمّن «كنّاشه» خبر وفاة والديه بقوله «ثم توفيت والدتي يوم السبت التالي لتاريخه (تاريخ ولادته) عن ثلاث وعشرين سنة، ثم توفي والدي يوم الثلاثاء سادس ولادتي عن ثنتين وثلاثين سنة، وكان والده قد توفي قبل ولادتي بستة أيام عن ثلاث وخمسين سنة» [الكناش، صور من الذكريات الأولى، لزروق، ص 11].

ثانياً: شيوخه ورحلته في طلب العلم

رُزق الشيخ زروق جدة عالمة صالحة وجهته نحو العلم والعمل الصالح في مرحلة مبكرة من حياته؛ وقد تحدث عن أثر جدته في مراحل حياته الأولى، وما كان لها من فضل العناية وال رعاية والتوجيه بقوله «وعلمتني الصلاة وأمرتني بها وأنا ابن خمس سنين، فكنت أصلي إذ ذاك، وأدخلتني الكتاب في هذه السن، فكانت تعلمني التوحيد والتوكل والإيمان والديانة» [الكناش، ص 11]. وأثمرت تلك العناية والتربية الأولى توجهها وتوفيقاً نحو شيوخ العلم والتربية من فقهاء وفقراء. وعن أيامه الأولى في طلب العلم يقول «فبقيت بعين الله بين جدتي الفقيهة أم البنين فكفلتني حتى بلغت العشر، وحفظت القرآن، وتعلمت صناعة «الخرز» ثم نقلني الله بعد بلوغي سادس عشر إلى القراءة، فقرأت الرسالة على الشيخين: «علي السطي» و«عبد الله الفخار» قراءة بحث وتحقيق، والقرآن على جماعة منهم: «القوري» و«الزرهوني» - وكان رجلاً صالحاً- و«المجاصي»، والأستاذ «الصغير»، واشتغلت بالتصوف والتوحيد فأخذت الرسالة القدسية وعقائد الطوسي على الشيخ «عبد الرحمن المجدولي» وهو من تلاميذ «الأبي» وبعض التنوير على «القوري» وسمعت عليه البخاري كثيراً، وتفقهت عليه في كل أحكام عبد الحق الصغرى وجامع الترمذي، وصحبت جماعة من المباركين لا تحصى كثرة بين فقيه وفقيه». [نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص 131 بتصرف]. وهذا غيض من فيض، فالشيخ زروق كما قيل عنه «أخذ عن شيوخ المشرق والمغرب، وأخذوا عنه كذلك» [الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، للحجوي الثعالبي، 312/2].

لم يكتف الشيخ زروق بطلب العلم في بلده، بل رحل في سبيل ذلك للازدياد منه، وفي رحلته إلى المشرق لقي عدداً من العلماء وقرأ بعض الكتب، ومن لقيهم بمصر كما نص عليه في «كنّاشه» «الشيخ نور الدين التنسي، ونور الدين السنهوري، وشمس الدين الجوهري...، ومن الكتب التي قرأها بمصر: الأحكام الصغرى لعبد الحق، وصحيح البخاري، والمدخل لابن الحاج، وقرأ في التصوف: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، وكتب الحارث المحاسبي، و«إحياء علوم الدين»، و«الرسالة القشيرية»، وكتب ابن عطاء الله السكندري، وغيرها. [الكناش، ص 11 بتصرف].



ثالثاً: آثاره العلمية

خلف الشيخ زروق إرثاً عالياً كبيراً بما كان له من جهود في التأليف والتدريس .

1. مؤلفاته:

للشيخ زروق تصانيف كثيرة يميل فيها إلى الاختصار مع التحرير ، وانفرد بجودة التصنيف في التصوف ، وصفه العلامة الحجوي الثعالبي الفاسي بقوله «ذو التصانيف العديدة المفيدة ، والمناقب الحميدة ، والزهد والورع ، والانكباب على العلم والهداية...» ، ذابا عن السنة ، قوالا للحق ، وهو آخر المحققين الجامعين بين الفقه والتصنيف ، المحتج به عند الطائفتين» [الفكر السامي، 312/2].

وقد ذكر صاحب «نيل الابتهاج» عدداً من مؤلفات الشيخ زروق المطبوعة والمخطوطة (فلترجع) وصدرها بقوله «وأما تأليفه فكثيرة ، يميل إلى الاختصار مع التحرير ولا يخلو شيء منها عن فوائد غزيرة وتحقيقات مفيدة سيما في التصوف ، فقد انفرد بمعرفته وجودة التأليف فيه...» ، وله رسائل كثيرة لأصحابه مشتملة على حكم ومواعظ وآداب ولطائف مع الاختصار قل أن توجد لغيره» [نيل الابتهاج، ص 131]. من أهم كتب الشيخ زروق في التصوف: «عدة المريد الصادق من أسباب المقت في بيان القصد وذكر حوادث الوقت» وكتاب «قواعد التصوف» و«شرح على متن الرسالة» و«النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية» وله عدة شروح للحكم العطائية». [الأعلام، للزركلي 91/1]. وله مؤلفات أخرى في مختلف الفنون «وكتبه كلها جليلة نفيسة ، نفع الله به أهل الإرادة وأبناء الآخرة...» ، وكتبه في التصوف أكثر من أن تحصى ، وكلها جليلة القدر كبيرة الشأن» [دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، ص 50]. وكُتبت عنه وعن مؤلفاته دراسات وبحوث علمية كثيرة .

2. تلاميذه:

الذين انتفعوا بعلم الشيخ زروق عددهم كثير؛ لما كان له من رحلات علمية في المشرق والمغرب؛ حيث كانت مجالسه في «بجاية» و«مصر» وليبيا» «أخذ عنه جماعة من الأئمة كشمس الدين اللقاني المصري ، والعالم محمد بن عبد الرحمن الخطاب ، والزين طاهر القسنطيني وغيرهم» [نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص 131 بتصرف].

رابعاً: تصوف الشيخ أحمد زروق

تلقى الشيخ زروق التعليم والتربية على عادة أهل المغرب في تعليم الولدان؛ حيث أُشرب حب التصوف في وقت مبكر من حياته ، كما يقص هو بنفسه فيما كانت تسلكه جدته الفقيهة الصالحة

في تربيته؛ إذ يقول «وكانت تحدثني بحكايات الصالحين وأهل التوكل، وغير ذلك من مقويات الإيمان، وما كانت تحدثني في موضع الخرافات إلا بمعجزاته ﷺ وغزواته، وغرائب الكرمات، والمنقطعين إلى الله تعالى» [الكناش، ص 14].

وكان له مزيد عناية واختصاص بمن عاش من أرباب الطريقة والسلوك ، وصفه أحمد بن عسكر بقوله «وارث المقام النبوي ، وحيي شريعته ، وناصر سنته ، إمام الطريقة ، وناشر ألوية الولاية على سبيل الحقيقة...» ، ص 48 [دوحة الناشر ، ص 48].

خامسا: منهج الشيخ زروق في التصوف

وأثمر ذلك تربية خاصة واندرجا في سلك السائرين على منهج أهل الطريقة في العبودية والإنابة والرضا بمسلك قائم على «التبصر في الدين» ومنهجه في التصوف قائم على الاتباع وترك الابتداع، قال الشيخ زروق -رحمه الله- مبينا الأمور التي ينفى بها إحداث البدع، وهي ثلاثة:

«أولها: تصحيح الإيمان بوجه يؤدي إلى إقامة حرمة الشارع فيما أمر به ونهى عنه، والتبصر في الدين، فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَاكُمْ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَايَكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7]. وقال عز وجل: ﴿فَلْيَخْشَ الَّذِينَ فِي خِلَافَتِهِ عَزَامُهُ أَرْثُصَيْتُكُمْ فَنَشْتُهُ أَوِصَّيْتُكُمْ عَذَابُ الْآلِيمِ﴾ [النور 61] وقال عز من قائل: ﴿فُلْ قَلِيلٌ لَّهِ سَبِيلُهُ أَلَمْ نَعُوذْ بِاللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف 108] فبين أن التبصر في الدين أصل من أصوله، وأن من أخذ الأمر رماية في عماية فليس بمتبع للشارع...

الأمر الثاني: البحث عن أحكام الله فيما هو به من حركة وسكون، وما يعرض له من إقبال وإدبار، وذلك لا يصح له إلا بمراقبة أحواله، فلا يعمل بشيء إلا عن علم أو اقتداء بمن يصح الاقتداء به من عالم ورع، أو فقيه متصدر فيما لا هوى له فيه

الأمر الثالث: العلم بأصول الطريقة التي هو بها أو يريد سلوكها ، فإنما حرّموا الوصول بتضييعهم الأصول ، وأصول القوم مبنية على الكتاب والسنة . . . » [عدة المرید الصادق ، ص 46 بتصرف].

ونظره إلى التصوف نظر تكاملي شمولي؛ إذ لا تصوف عنده إلا بفقّه، ولا تُعرف أحكام الله الظاهرة التي يُعبد بها إلا منه، ولا فقّه إلا بتصوف؛ إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه لله تعالى، ولا هما- التصوف والفقّه- إلا بالإيمان؛ إذ لا يصح واحد منهما دونه. وقد انتمى الشيخ زروق إلى الطريقة الشاذلية وأظهر موافقتها للشريعة، كما انتمى إلى الطريقة القادرية متأثراً بالمدرسة الجيلانية.



وتسمية طريقته بالزروقية، نسبة مجازية، فإن طريقته سنية، أخذت من الطريقة الشاذلية، ومن القادرية، فهي: زروقية، شاذلية، قادرية، سنية، قائمة على الاتباع وموافقة الشريعة؛ إذ بيّن أنه لا بد لسالك هذا الطريق من «العلم بأصول الطريقة التي هو بها أو يريد سلوكها، فإنما حرموا الوصول بتضييعهم الأصول، وأصول القوم مبنية على الكتاب والسنة». ومنهجه مراعاة الأحوال، واعتبار التفاوت في الأذواق، ومذهبه «أن من له نصيب من صدق في التوجه له نصيب من التصوف، وأن تصوف كل أحد صدق توجهه» ومدرسته الصوفية «الزروقية» منبثقة عن المدرسة الشاذلية المتهدية بالتصوف السني، تتميز بآرائه الإصلاحية ونصائحه التي خص بها المريد الراغب في سلوك طريق الصوفية. وصفه الشيخ أبو سالم العياشي بقوله «مقتدى أهل العلم الباطن، ومتبوع أهل الظاهر، وينبوع الأسرار في سائر المظاهر، قطب مغربنا وإمام أئمتنا» [الرحلة العياشية، ص 96]. ويكفي الشيخ زروق فضلا وفخرا أنه أطلق عليه «محتسب العلماء والأولياء» ومن عرف حقيقته أدرك حقا أنه «خطبته الدنيا فخطب سواها».

من أقوال الشيخ أحمد زروق في التصوف وإصلاح القلوب:

للشيخ زروق أقوال وحكم كثيرة لا غنى لسالك هذا الطريق عنها، ومن قواعده الذهبية في كتابه «قواعد التصوف» قوله «التصوف صدق التوجه إلى الله تعالى» وقوله «التصوف علم قصد لإصلاح القلوب»، وتضمن الكتاب قواعد جلية، جديرة بالنظرة والقراءة بعبارات ميسرة جامعة.

سادسا: رحلته الأخيرة ووفاته

في عام 877هـ رجع الشيخ زروق من مصر إلى المغرب وأقام ببجاية، وكانت له فيها صلات مع شيوخه المشاركة، ثم رجع في عام 880هـ إلى مدينة فاس، وغادرها بعد سنوات يسيرة، قافلا إلى بجاية مرة أخرى، ثم غادرها إلى مصر، وجدد فيها الصلة بشيوخه، وصار صاحب شأن كبير في العلم، ومرجعا في التعليم والتربية والسلوك، نزل الشيخ زروق مصراته بليبيا عام 886هـ، وطاب له المقام فيها.

وفي عام 894هـ توجه إلى الحج، ومر بالقاهرة حيث ألقى بعض الدروس بجامع الأزهر، ثم رجع بعد أداء فريضة الحج إلى مصراته، وقضى بها السنوات الأربع الباقية من عمره، وتوفي رحمه الله في الثامن عشر من صفر عام 899هـ (وقيل سنة 896هـ) وكانت وفاته في «تكرين» من قرى «مسرارة» بطرابلس الغرب. [الأعلام، للزركلي 91/1].

التقويم

1. أبين أثر حفظ القرآن الكريم في تحصيل العلوم والتربية على الاستقامة والسلوك .
2. أبين منهج الشيخ زروق في التصوف .
3. أذكر كتب الشيخ زروق في التصوف .

الاستثمار

كتب الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- في وصيته لمن رام نسخ كتابه «عدة المريد الصادق» قائلا:

«ليعلم الناظر في هذا الكتاب ، والمتأمل لما فيه من حق وصواب ، أنا لم نقصد به الطعن على الناس والقذح فيهم ، ولا الاشتغال بمساوئهم ولا إظهار عيوبهم ، ولا أردنا الاستظهار بالمزية عليهم ، وإنما قصدنا فيه التحذير من الوقوع فيما حذرنا منه ، والتحرير لما نبهنا عليه ، ليكون عدة للصادق في دينه ، وإعانة للمحقق في يقينه ، ورحمة للمسكين في حاله ، فمن قصده لشيء مما قصدناه به فالله المسؤول في إعانته ونفعه ، ومن قصده لغير ذلك فالله المستعان على إتلافه عنه ومنعه . . . ، ويعلم الله لولا الشفقة على بعض الإخوان الصادقين ما كتبت منه حرفا ، مع ما أخذ الله على من علم شيئا أن يبينه ولا يكتمه ، وما ورد من الوعيد في سكوت العالم عند ظهور البدع ، مع ما انضم إلى ذلك من أسباب خاصة وعامة ، وعلى الله المعتمد في عموم النفع به ، وأن يجعله رحمة وبركة حيثما حل ، ثم أرغب لمن كتبه أن يكتب هذه المقدمة في ظهر نسخته ، لنبرأ من جهل الجاهلين ، وعلى الله ثوابه وهو حسبنا ونعم الوكيل» [عدة المريد الصادق ، ص 31 بتصرف].

أتأمل النص ، وأبين ما ينبغي أن يتحلى به العالم في تدريسه وتأليفه من الأخلاق .

الإعداد القبلي

أبحث عن ترجمة الشيخ العربي الدرقاوي ومدرسته في التصوف .